

محاضرة "التاريخ الإسلامي: بين النظرة الاستشراقيّة والنظرة من الداخل"

Lecture "The History of Islamic Civilization: Orientalism versus the View from Within"

هذا النص محاضرة قدّمها المؤرخ العربي هشام جعيط تحت عنوان "التاريخ الإسلامي بين الرؤية الاستشراقيّة والرؤية من الداخل" على هامش ندوة مجلة "أسطور" للدراسات التاريخية، والتي خصّت لموضوع "التحقيق في التاريخ العربي الإسلامي". تناول جعيط في محاضرته دراسة السيرة النبوية؛ إذ قدّم عرضاً لأهم إشكالات التي تناولها في كتابه عن السيرة النبوية المنشور في ثلاثة أجزاء، والذي يعدّ أهم كتابه. وفي تقديمه وصفه الدكتور عزمي بشارة بكونه أحد أهم المؤرخين العرب، فهو مفكر ومؤرخ في الآن ذاته، ودكتور أثري وبولوجي. كما أنّ جعيط اقتصر مجالاً جريئاً بدراسة السيرة النبوية والشخصية العربية، من موقع المؤرخ العربي المسلم، ردّ من خلاله على سردية المستشرقين الغربيين عن السيرة النبوية.

كلمات مفتاحية: النبي محمد، المدينة، مكة، قريش، القبيلة، الحُمُس، الإيلاف، الحرم، الحج، الفتنة الأولى.

This text is the summary of a lecture titled "The History of Islamic Civilization: Orientalism versus the View from Within", delivered by noted Arab historian Hichem Djaiet on the sidelines of the Ostour symposium for historical studies. The symposium was dedicated to periodization of Arab-Islamic history, and Djaiet's lecture focuses specifically on his work on the biography of the Prophet Mohammed, the Sira, and discussed some of the most complex issues he faced while writing his book on the topic. Introduced to the audience by Azmi Bishara, Djaiet was described as "one of the most influential Arab historians" for his "brave work" on the personal biography of the Prophet Mohammed by an Arab, Muslim historian who asserted a narrative that challenged the dominance of Western Orientalists.

Keywords: Prophet Mohammed, Medina, Makkah, Quraysh, Muslim tithes, tribal coalitions, sacred, pilgrimage, the First Fitna

* مؤرخ عربي، والرئيس السابق لمؤسسة "بيت الحكمَة" في تونس (2012 - 2015).
Arab historian and the former Director of Tunisia's Beit Al Hikma (2012 - 2015).

كلمة الدكتور عزمي بشارة

الدكتور هشام جعيط - وطبعاً معنا ضيوف آخرون، الدكتور عبد الأحد السبتي، بالمناسبة أرحب به. وهو مؤرخ اجتماعي معروف من المغرب. لكن سيدتم تقديمها لاحقاً في الندوة. نحن الآن في سياق المحاضرة العامة قبل بدء "ندوة أسطور". وأسطور مجلة يصدرها المركز العربي للأبحاث. وهي واحدة من خمس دوريات يصدرها المركز، ونحن نعتز بها بصورة خاصة؛ أولًا لأنها آخر الدوريات التي يصدرها المركز، ثانية لأنها من البداية قامت بتنسيق بين المركز وقسم التاريخ في المعهد، وأعطت نموذجاً ممتازاً للتعاون بين مركز الأبحاث والمعهد، واتبع فيها برأيي معايير أكademie عالية جداً، ما يؤهلها لتكون مجلة الدراسات التاريخية العربية فعلاً. ونأمل أن يكون هذا هو مستقبلها. هذا طموح وتفاؤل. ويحق لنا قول ذلك بناءً على تجربة الأعداد التي صدرت حتى الآن.

نجتمع في إطار ندوة أسطور، ولملفها هو "التحقيق التاريخي". وهو موضوع تاريجي، وموضوع فلسفى، واجتماعي ونظري. وقد ارتئى الإخوة أن تبدأ الندوة بأفضل ما يمكن أن تبدأ به، وهو استضافة أحد أهم المؤرخين العرب الأحياء، وهو الدكتور هشام جعيط، والذي أعده مؤرخاً وأنثربولوجياً في الوقت ذاته.

لا أحمس لتقديمه على النحو: المألف... لم يعد مهمماً أين حصل على الدكتوراه، أو إن كان حصل عليها في الأصل. أعتقد أن هذا الأمر غير مهم، أي تقديم الناس أنهم حصلوا على البكالوريوس من المكان الفلاحي، والماجستير من الجامعة الفلانية؛ فأبلرت حوراني على سبيل المثال لم يكن حاصلاً على الدكتوراه. لهذا أعتقد أن فكر الشخص وإن Cottage him ما الأساس، وليس أين درس، وأين تعلم.

أعتقد أن الدكتور جعيط اقتحم مجالاً جريئاً جداً، وخاصة في ظلّ الوضع الذي كان قائماً في تونس في حينه. فقد اقتحم كمؤرخ موضوع التاريخ الإسلامي المبكر لفهم، في محاولة فهم، أو لربط الشخصية الحضارية العربية والإسلامية انطلاقاً من تأسيس المدينة العربية، مثل كتابه الشهير عن **نشأة المدينة العربية الإسلامية**، بعد كتابه **الشخصية العربية**، فقد دخل لاحقاً مجالاً أعتقد أنه يكاد يكون حقل ألغام بالنسبة إلى مؤرخ عربي مسلم، وهو دراسة السيرة المحمدية دراسة تاريخية (وضعية) كما يقال بموازاة سردية السيرة النبوية أو المحاولات الفقهية لفهم تاريخ الرسول، وهذا دون أن يعارضها. فلم يكن عمله هو معارضة الـ[Narrative] التاريجي في دراسة الشخصية المحمدية.

سُئلت قبل قليل ما الفرق بين هذا العمل Montgomery Watt في دراسة محمد وآخرين. هذا بالضبط موضوع محاضرته اليوم: "التاريخ الإسلامي بين النظرة الاستشرافية والنظرة من الداخل". فهو درس التاريخ الإسلامي بنظرة مؤرخ مسلم من الداخل.

نقدم لكم نبذة سريعة عن مؤلفاته:

✿ **الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي**، سنة 1974.

✿ **أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحداثة**، سنة 1978، وهو كتاب أحدث ضجةً كبيرةً في الغرب بالنسبة، و كنت ممّن عاشوا هذه الضجة.

✿ **الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية**، سنة 1986.

✿ **الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر**، سنة 1989.
ولا يمكننا عذر أي كتاب من هذه الكتب كتاباً رئيساً للمؤلف،

ثم في السيرة النبوية:

﴿ أزمة الثقافة الإسلامية، سنة 2001. ﴾

السيرة النبوية في ثلاثة أجزاء؛ الجزء الأول: **الوحى والقرآن والنبوة**، 1999؛ والجزء الثاني: **تاريخية الدعوة المحمدية**، سنة 2006. وهذان الكتابان كتبهما جعيط بالعربية وترجمما إلى الفرنسية كما قال لي قبل المحاضرة؛ والجزء الثالث: صدر مؤخراً بالعربية سنة 2014، وهو **مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام**، صدر بالفرنسية سنة 2012، أي إنه صدر قبل ذلك بعامين.

أضف إلى ذلك الكثير من المقالات العلمية وغيرها. وأنتم تعرفون أنه تبؤاً منصب رئيس "بيت الحكمـة"، وهذا آخر مناصبه العلمية. وطبعاً، كان أستاذـاً شرفيـاً في الجامعة التونسية. نرحب به بحرارة ويشـرـفـنا وجودـهـ معـنـاـ. ونتمنـيـ لهـ الصـحةـ وـطـولـ العـمـرـ، ليـسـتـمـرـ فيـ الـإـنـتـاجـ وـإـتـاحـ المـكـتـبـةـ الـعـرـبـيـةـ بـهـذـهـ الأـفـكـارـ.

محاضرة الدكتور هشام جعيط

أشكر معهد الدوحة والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ورئيسه الدكتور عزمي بشارة وأعضاده في المركز. وأشكر هذا البلد قطر الذي استضافني. وأشكر الحاضرين هنا، ومنهم زملائي من التونسيين والمغاربة، وإخوانـيـ منـ المـشـرقـ. أنا مـسـرـورـ جـداـ بـوـجـودـكمـ وـبـدـعـوـةـ الأـسـتـاذـ عـزـميـ بـشـارـةـ. وـبـسـرـنـيـ أـقـدـمـ كـتـابـيـ الـأـخـيرـ عـنـ السـيـرـةـ النـبـوـيـةـ. وـهـوـ فـيـ الـوـاقـعـ كـتـبـ عنـ مـسـارـ الرـسـوـلـ وـأـنـتـصـارـ إـلـاسـلـامـ فـيـ الـجـزـيـرـةـ الـعـرـبـيـةـ، وـكـتـبـ فـيـ ثـلـاثـةـ أـجـزـاءـ، لـمـدةـ عـشـرـينـ سـنـةـ مـنـ بـيـنـهـاـ سـتـ سـنـوـاتـ أوـ سـعـيـ كـتـبـ أـدـرـسـ فـيـهـاـ الـكـتـابـ قـبـلـ كـتـابـتـهـ، مـعـ أـنـيـ كـتـبـتـ كـتـابـاتـ أـخـرـىـ بـيـنـ الـفـيـنـةـ وـالـأـخـرـىـ. لـكـ مـنـذـ عـشـرـينـ سـنـةـ تـقـرـيـبـاـ، اـنـصـبـ هـمـيـ عـلـىـ التـارـيـخـ الـنـبـوـيـ. وـهـوـ لـيـسـ بـتـارـيـخـ سـيـكـوـلـوـجـيـ لـشـخـصـيـةـ الـنـبـيـ كـمـ اـعـتـادـ عـلـىـ ذـلـكـ الـمـسـتـشـرـقـوـنـ وـشـعـفـواـ بـهـ.

همـيـ هوـ الشـخـصـيـةـ النـبـوـيـةـ بـوـصـفـهـاـ شـخـصـيـةـ تـارـيـخـيـةـ مـؤـسـسـةـ لـدـيـنـ صـارـ الـيـوـمـ وـمـنـ الـقـدـيمـ دـيـنـاـ عـالـيـاـ، مـثـلـ الـمـسـيـحـيـةـ، وـالـبـوـذـيـةـ وـالـهـنـدـوـسـيـةـ. وـهـوـ يـعـدـ مـنـ الـدـيـانـاتـ الـعـالـمـيـةـ الـكـبـيـرـ. وـأـرـدـتـ أـنـ أـتـفـهـمـ هـذـاـ الـمـسـارـ لـلـرـسـوـلـ بـوـصـفـهـ مـؤـسـسـ دـيـنـ. كـانـ اـهـتـمـامـيـ بـالـمـسـائـلـ الـشـخـصـيـةـ ضـعـيـفـاـ؛ إـذـ كـتـبـ أـرـبـعـةـ أـسـطـرـ فـيـ الـهـوـامـشـ عـنـ زـوـجـاتـهـ، وـرـأـيـتـ أـنـهـ تـزـوـجـ بـالـأـسـاسـ مـنـ أـرـامـلـ حـرـوبـ باـسـتـشـنـاءـ عـائـشـةـ، وـأـنـ مـؤـسـسـيـ الـأـدـيـانـ الـكـبـيـرـ كـمـ مـؤـسـسـيـ الـإـمـبـراـطـورـيـاتـ الـعـظـمـيـ، لـيـسـ لـهـمـ هـمـ كـبـيرـ بـحـسـبـ مـعـرـفـتـيـ التـارـيـخـيـ بـكـلـ ماـ هـوـ جـنـسـ وـغـيـرـ مـؤـسـسـيـ الـأـدـيـانـ الـكـبـيـرـ كـمـ مـؤـسـسـيـ الـإـمـبـراـطـورـيـاتـ الـعـظـمـيـ، لـيـسـ لـهـمـ هـمـ كـبـيرـ بـحـسـبـ مـعـرـفـتـيـ التـارـيـخـيـ بـكـلـ ماـ هـوـ جـنـسـ وـغـيـرـ ذلكـ، هـمـ تـجـاـزوـواـ هـذـاـ. وـيـمـكـنـ أـنـ نـقـارـنـ فـيـ هـذـاـ الـمـيدـانـ شـخـصـيـةـ الرـسـوـلـ بـغـيـرـهـ مـنـ كـبـارـ مـؤـسـسـيـ الـأـدـيـانـ، وـحتـىـ مـؤـسـسـيـ الـإـمـبـراـطـورـيـاتـ. هـمـ أـنـاسـ مـهـوـوـسـوـنـ قـبـلـ كـلـ شـيـءـ بـرـسـالـتـهـمـ. وـهـمـ مـقـتـنـعـوـنـ أـيـضاـ بـصـفـةـ وـاـضـحـةـ جـلـيـةـ وـقـوـيـةـ بـرـسـالـتـهـمـ. وـبـرـيـدـوـنـ إـيـصالـ هـذـهـ الرـسـالـةـ إـلـىـ الـبـشـرـ. وـهـذـهـ حـالـ النـبـيـ الـذـيـ كـانـ مـقـتـنـعـاـ تـمـاماـ بـأـنـهـ نـبـيـ مـرـسـلـ.

كتبت ثلاثة أجزاء؛ أولـهاـ هوـ جـزـءـ فـيـهـ عـنـصـرـ مـنـ التـفـكـيرـ، وـهـوـ مـمـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـقـالـ "التـارـيـخـ المـفـكـرـ فـيـهـ". وـاهـتـمـمـتـ بـصـفـةـ خـاصـةـ بـالـوـحـىـ كـيـفـ نـزـلـ، أـيـ المـبـعـثـ الـأـوـلـ. وـاعـتـمـدـتـ بـصـفـةـ أـسـاسـيـةـ عـلـىـ الـقـرـآنـ فـيـ هـذـاـ الـجـزـءـ. وـلـمـ أـعـتـمـدـ عـلـىـ السـيـرـةـ؛ فـاـسـتـقـرـتـ السـوـرـ الـأـسـاسـيـةـ بـيـدـ الـمـبـعـثـ، وـهـيـ سـوـرـةـ النـجـمـ أـوـلـاـ، وـالـسـوـرـةـ عـدـدـ 18ـ ثـانـيـاـ. حـيـثـ يـذـكـرـ الـقـرـآنـ كـيـفـ اـبـتـأـ الـوـحـىـ وـهـوـ مـنـعـرـجـ خـطـيرـ جـداـ وـمـهـمـ جـداـ. وـكـنـتـ اـعـتـمـدـتـ عـلـىـ تـنـظـيمـ السـوـرـ الـذـيـ قـامـ بـهـ Nöldekeـ وـصـحـحـهـ شـيـئـاـ مـاـ أوـ فـصـلـهـ الـفـرـنـسـيـ Blachèreـ دونـ أـنـ أـنـسـاقـ وـرـاءـ أـفـكـارـ Nöldekeـ عـنـ شـخـصـيـةـ الرـسـوـلـ أـوـ عـنـ رـأـيـهـ فـيـ الـقـرـآنـ. اـهـتـمـمـتـ بـالـاعـتـمـادـ عـلـىـ الـقـرـآنـ، وـهـذـاـ أـمـرـ جـلـيـّـ لـدـيـّـ، بـوـصـفـهـ نـصـاـ تـارـيـخـيـاـ. وـأـنـاـ

أتكلم دائمًا عن التاريخ ولا أدخل في الميتافيزيقا وأمور من هذا القبيل - معاصرًا للرسول، ولمساره. وانتقدت في الجزء الثاني مقولات المستشرقين بخصوص أن القرآن من القرن الثاني أو الثالث أو أنه ترجمة عن السريانية، وغير ذلك من الأمور التي سأتي على ذكرها.

اعتمدت على القرآن لأن السيرة متأخرة نسبياً؛ ابن إسحاق توفي سنة 150هـ وهو أتم كتابه في رأيي قبل عشرين سنة تقريباً، والمادة التاريخية الموجودة فيه كان يهتم بها من منعرج القرن الثاني (110-120هـ) واعتمد كثيراً على الزهري المتوفى في 124هـ وعلى غيره من رواة السيرة بصفة شفوية. ابتداءً من عهد عمر بن عبد العزيز سنة 100هـ، حصل منعرج واهتمام بالسيرة النبوية. لكن هؤلاء الأشخاص الذين تكلّموا مثل عمر بن قنادة وغيره، كتبوا اعتماداً على من قبلهم لأن الثقافة في القرن الأول كانت بالأساس ثقافة شفوية.

أرى أن الاهتمام بحياة الرسول في السيرة ابتدأ تقريباً من عهد معاوية، في الفترة الواقعة بين سنتي 50 و60 بعد الهجرة، وليس قبلها. لكن اعتمادي على القرآن بخصوص الوحي يتناهى في بعض الأحيان مع ما تقوله السيرة؛ فأنا أرى مثلاً أن انزال الرسول في "غار حراء" ونزل الملك لم يذكره القرآن بما هو أمر عظيم، وعليه، لا أرى أن ابن إسحاق يقول الحقيقة في كون القرشيين بطعهم ينزعون في بعض الأحيان في غار حراء، قد يكون الرسول انعزل. وذلك ليس ثابتاً. ولا ذكر له في القرآن. بينما هناك ذكر لـ"غار الثور" فيما بعد، عندما هاجر الرسول من مكة إلى المدينة، في سورة التوبة.

وعلى عكس ذلك، يذكر القرآن بصفة مفصلة أول نزول للوحي في هاتين السورتين. سورة النجم فيها رؤيتان لشخص قد يكون الملك وقد يكون الإله كما يقول بعض المفسرين، ليس في كل نوره لأنّه لا يمكن رؤية الإله في كل نوره، وأخذوا مثال موسى في ذلك، غير ممكن بل بصورة مخففة، إنما قد يكون ذلك لأن سورة النجم لا تذكر من هو هذا الشخص؛ شخص خارق للعادة، شخص فوق الطبيعة رأه النبي وأوحى إليه ما أوحى، قد يكون الإله نفسه لكن بصفة خاصة، أو قد يكون الملك. وهناك رؤيا أولى ورؤيا ثانية في سדרة المتهي كما يقول القرآن، وهي بالطبع ليست كما يقول المستشرقون شجرة في قعر مكة، أو هوامش مكة، بل هي شجرة يمكن أن يقال إنها ذات رمزية روحية كبيرة، لأنّ فيها مفهوم المتهي. وهذا المفهوم موجود مرة أخرى في السورة نفسها أي نهاية الوجود، أو على حافة نهاية الوجود، وهو "ورأى من آيات ربِّ الكبُرِي" ، وتلك كانت تجربة أساسية للرسول في هاتين الرؤيتين. بينما تعطينا سورة النجم صورة حقيقة واضحة عن هذا الشخص المأوري، فإن السورة عدد 18⁽¹⁾ تتكلم عن "إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين". لكن هذا واضح، لأن الوحي جاء عن طريق رسول من الإله.

أعطى المستشرقون الذين درسو القرآن هذه السورة الرقم 18 قبل سورة النجم. وأنا أتبعهم في هذا بسبب الأسلوب. لكن، صرت الآنأشك في أنّ القسم الخاص بقول الرسول الكريم لا يذكر اسمه. قد تكون بعد سورة النجم لتفسير هذا الشخص المأوري، هو رسول وليس الإله. ومن الممكن أن تكون أنت بعد النجم لتفسير الأمور وتوضيحها؛ لأن سورة النجم تبقى مبهمة حول نزول هذه الشخصية المأورية التي قد تكون إلهية، وقد تكون من الملائكة. "شديد القوى ذو مرة فاستوى،... فأوحى إلى عبده ما أوحى" ، توقف المفسرون عند الكلمة "عبده" ، إن كان هذا الشخص هو الملك جبريل كما ذكر في المدينة فيما بعد في سورة البقرة، فكيف يكون الرسول عبده، الرسول هو عبد الله. فهناك مشاكل نحوية وغيرها.

على كلّ لن أطيل الكلام في هذا، فالذي يهمني هو أنّ الرسول رأى رؤيتين كانتا بدايةً للوحي. ونترجمها إلى الفرنسية Vision ، إنما تكون رؤيا بالقلب، وإنما تكون رؤية. لكن القرآن واضح في هذا المجال، إذ يقول "ما زاغ البصر وما طغى" ، إذن هي رؤية حقيقة بحسب القرآن بالطبع، وليس من الرؤى المتخيلة أو شيئاً من هذا القبيل. ثم أرى أن العلاقة المباشرة مع الإله أو مع رسوله الكريم كما تقول

1 سورة الكهف وعدد آياتها 110.

السورة الذي لم يُذكر اسمه في الفترة المكية، توقفت هذه الرؤى فالرسول لم يعرف إلا رؤيتين فقط؛ إذ فيما بعد عندما تكشف اسم الملك جبريل لا يقول القرآن إنّ جبريل يأتي بنفسه بصفة أو بأخرى، إنّما يقول "نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ"، فيكون الوحي بعد هاتين الرؤيتين المبدئيتين وحِيًّا داخليًّا يأتي من الإله عن طريق جبريل على قلبك، أي على فكرك؛ ففي المعجم القديم القلب هو مركز الفكر. هذا بخصوص بداية الوحي. ولا أرى ما قاله ابن إسحاق في هذا المجال بخصوص أنّ الرسول قلق من هذا الأمر العظيم الذي نزل عليه وكأنّه "داهية"، ولا أرى أنه فَكَرَ في الانتحار وما شابهه. لكن عندما نستقرئ القرآن وسورة النجم عندما يقول "رأى من آيات رَبِّ الْكَبْرَى"، وفي الحقيقة النبي اهتز وشعر بفرح بهذه التكشّف الإلهي بصفة أو بأخرى، ولا أرى ضرورة لأن يعُد كأنه صدم. قصة الغار فيرأيي غير مستساغة، لأنّ الرسول، بحسب رأيي، كان يصبو إلى النبوة ويتوقع شيئاً من ذلك، وكان مستعداً إلى حدٍ ما على الأقل أن يحدث له أمر خارق للعادة، لأنّه كان مستعداً في رأيي لهذا الشرف الذي أتاه من الإله. وأهم دليل على ذلك هو أنّه حينما توقف الوحي في الفترة الأولى كان حزيناً، وهذا أمر موجود في تاريخ الأديان. عندما نستقرئ الزرادشتية - وزرادشت أتى أيضاً بكتاب مقدس، وكان توحيدياً حوالى القرن 7 قبل ميلاد المسيح حين توقفت علاقته بآلهه أهورامزا، كان حزيناً. ويظهر هذا في داخل كتاب *الأفيستا Avesta* وهو يُنسب إلى زرادشت بالذات، كان حزيناً ثم لما استعاد علاقته بالإله، انشرح قلبه. ومن هنا، فالسورة "والضاحي وإذ سجى"، واضحة في توقف الوحي لفترة معينة، فحزن الرسول لتوقفه إلى الله تعالى وإلى الإله المتعالي. وهو رجل مستعد نفسياً لهذا الأمر الذي سخر، كما ظهر، حياته له ولم يفكّر في هذه القصص من لدن ابن إسحاق وغيره، لأنّ الإله طمنه على ذلك. ووقع استرجاع عملية الوحي ونزل الوحي إلى آخر حياة الرسول.

عموماً، لا بد من تصحيح السيرة؛ لأنّ ابن إسحاق نفسه يقول في الغار بين الرسول والملك إنّ الملك زاره وهو في النوم وليس في اليقظة، وهذا ما يقوله ابن إسحاق حرفياً، والنوم في العالم القديم والأحلام التي براها أشخاص مستعدون للروحانيات بصفة خاصة، يعُد أيضاً وحِيًّا من الإله. وهذا موجود في التوراة وفي عدة كتب دينية. سيتكلّم القرآن فيما بعد عن رؤى أخرى، بخصوص زيارة مكة مثلاً في العام السادس، تكلّم عن رؤيا الشجرة، وهي تأتي دائمًا عن طريق الحلم. وهذا يدخل في منطقة الأديان القديمة في كلّ العالم.

اعتمدت إذن في هذا الجزء الخاص بنزول الوحي، على القرآن بالأساس. مقارنةً أيضاً مع أديان أخرى، نحن نقرر ميدانياً بوصفنا مؤرخين، أنّ الدين الإسلامي هو دين كتاب مقدس ودين وحي Révélation بالفرنسية. وكذلك في ما يخصّ أدياناً أخرى سواء أكانت توحيدية أم غير توحيدية، وأخصّ زرادشت وأنبياء الهند، وهناك أنبياء كثر في الهند في تلك الفترات القديمة درسها بكلّ انضباط ماكس فيبر في كتبه عن سوسيولوجيا الدين، وقامت بمقارنات متعددة بين البوذية والإسلام، وبين الهندوسية والإسلام، وبين المسيحية والإسلام. لذلك فبخصوص نقطة الوحي والاستعداد للوحي، وكيف نزل، كتبت الكتاب بالعربية ووجهته للجمهور العربي وعددت الجمهور العربي غير عارف بصفة كافية بالأديان الأخرى، فهو منصب على الغرب وعلى الآخر الوحداني الغرب، وليس له افتتاح على أديان أخرى في الشرق الأقصى وغيره، أو في الهند أو حتى في ما يخص إيران. وقامت بمقارنات ونوع من التعليم - إن شئت - للقارئ العربي في هذا الميدان، لكي يتفتح على الديانات الأخرى وال مجالات الحضارية الأخرى.

هذا باختصار ما قلته في الجزء الأول، وكان جزءاً غير طويل. أمّا في الجزء الثاني الذي يخص الدعوة النبوية في مكة، فإني اهتممت بصفة خاصة بالوسط الذي عاش فيه الرسول. لقد درس بعض الأنثروبولوجيين أو المستشرقين العالم البدوي، عالم القبائل الكبرى، أما دراسة الوسط الذي نشأ فيه الرسول، قريش مكة، وشبّ فيه وأخذ يدعوه فيه من الأول خلال مدة طويلة قد تراوح بين ثمانين سنة أو 13 سنة بحسب المصادر. مدة طويلة إذن، ولم تكن في آخر المطاف ناجحة باستثناء مئة تقريباً أو ما يفوق المئة من المؤمنين

الصادقين الذين بقوا على دينهم. واهتممت إذن بهذا الوسط الذي شبّ فيه الرسول. ولمْ أكن الوحيد الذي اهتمّ بدراسة قريش، هذه القبيلة الخاصة بالرسول. قام بعض المستشرقين بهذه الدراسة. ثم ظهرت دراسات عن الحُمُس وعن الحُمُس، وعن مفهوم الحرم، وعن مفهوم الإيلاف قام بها مستشرقون متأخرون. اهتممت بكلّ هذه المسائل وبتطبيق المنهج الأنثروبولوجي على علاقات القرابة وعلاقة الزواج وكلّ الحياة التي يهتمّ بها الأنثروبولوجي في هذه المدينة الخاصة وأصولها، وكيف تأسست، في أكثر من مئة صفحة. ووصلت إلى بعض النتائج؛ مثلاً في ما يخص تأسيس مكة وفي رأيي كانت حمى من حمى العرب المجاورةين، وبالخصوص قبيلة خزاعة التي يبدو لي أنها كانت قبيلة دينية، وكيف استقر القرشيون، وما هو الحُمُس الذي رأى بعض الباحثين الماركسيين، أنّ له علاقة بالتجارة أساساً، وأنّ قريشاً كونت نوعاً من الحلف الكبير مع قبائل مجاورة لها خصائص كبيرة وأدخلتها في نوع من الحلف هو الحُمُس، وفيه طقوس خاصة، وأنّ أصل ما يسمى الحُمُس (ح. م. س) هو مسألة تجارية تخص التجارة. ولا أعتقد هذا أبداً. أعتقد أنّ الحُمُس مؤسسة قديمة جداً وقع نسيانها في فترة معينة ثم استرجعت في فترة ما قبل النبوة. من ناحية ثانية الاهتمام بالحرم، أعتقد أنّ القرشيين أرادوا توسيع الحرم المكي توسيعاً كبيراً، وأنّهم أرادوا أن يزاحموا الحج الأكبر بعرفات. وهذا فيه إشارات في القرآن وفي السير، وأنّ الحرم المكي مقام على الدين وعلى الاتمام الديني وعلى حرمة الكعبة التي لا نعرف إلى أيّ إله تتمنّى، فهي قديمة جداً وترجع إلى فترة تاليه الحجر، وعدّ الحجر ذا قدر ما لدى الساميّين، هو مقرّ الإله، لكنّ أيّ إله؟ ما قاله فلاهاوزن Wellhausen ليس صحيحاً من أنّ إله الحجر الأسود هو هُبل. وليس صحيحاً أيضاً ما قاله غيره إنّ الإله الذي يقدّسه القرشيون في الكعبة هو الله. لا، فهو أتى به الرسول، والقرآن فيما بعد أكدّ أنّ الكعبة بيت الله. وحاولت دراسة الحج، ورأيت أنّ هناك حجّين: ما سيسمي فيما بعد الحج الأصغر، والحج الأكبر. والقرآن يتكلّم عن الحج الأكبر. الحج الأصغر هو العمرة إلى مكة وزيارتها وتقبيل الحجر الأسود والطواف، وغير ذلك، ويتعلق بصفة خاصة بالقرشيين ويخص حرمة المكان؛ فكلّ المدن العربية في الحجاز لها أسوار، والمدينة لها "أتم"، الطائف لها سور، خير أيضاً لها حصون، ودومة الجندي الشيء نفسه. كلّ الجهات العربية وبالطبع اليمن لها حصون تحصنها من انتهاكات البدو الحرية، في حين أنّ مكة كانت مفتوحة - واستبطان القبائل المجاورة مفهوم الحرم جعل القرشيين مرتاحين من هذه الوجهة - لأنّ الحرم مقدس، ولا يمكن لعرب الجوار، وهو كثرة من القبائل الصغيرة التي دخلت فيما بعد في بوتقة قريش تحت حماية قريش بالذات...، انتهاكه، من كلّ قبائل الجوار. وهذا ما يعنيه القرآن عندما يعطينا بعض آراء معارضيه في قريش؛ فعندما تكون المعارضة الموجدة في القرآن فيها نوع من المعقولة تأتي من الأشراف، من رؤساء العشائر، وعندما تكون سخيفة تأتي من سفهائهم. ففي القرآن، هناك نوع من معارضة الأشراف للنبي يبدو معقولاً؛ مثلاً - لا أذكر بالحرف الآية القرآنية - حينما يقولون ما معناه إذا دخلنا في دينك سيتهلك الحرم، سيختطفنا الناس، هذه الكلمة القرآنية، الناس أيّ عرب الجوار، إذا سقط الدين القديم ومفهوم الحرم والحرمة، لأنّ لقريش ديناً قدّيمًا يستبطنه أهل الجوار. سيختطفنا الناس إذا سقط هذا الدين. وما كانوا يتخيّلون أنّ الرسول سيقوم بإعادة تأسيس حرمة مكة من جهة أخرى بحسب نواميس دينه الجديد. كانوا يتوقعون أنه إذا سقط دينهم القرشي ذهب حرمتهم. هناك شاهد آخر في القرآن وهو قوله "إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت.."، لم يذكر اسم الله إلا في السورة العاشرة بحسب ترقيم Nöldeke، "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف". تعني هذه الآية أنّ حرمة الكعبة التي يؤكّد القرآن أنّ الله ربّ هذا البيت، جعلتهم قادرين على أن يسافروا في رحلتين؛ مرّةً كما قيل إلى اليمن ومرّةً إلى الشام، دون أن يخشوا على أهلهم ولدهم. لا يذهب كلّ الناس للتجارة، إنّما لنقل مئة شخص أو خمسين شخصاً، لكن حرمة مكة تبقى قائمة الذات حتى من دون أسوار. كلّ هذا مصدره حرمة الكعبة. وفي رأي القرآن، رب الكعبة وهو الله. وهنا نشرع في مشكلة الإيلاف. لا أتفق مع ما كتبه المستشرقون والعرب عن الإيلاف. وقد اعتمد في ذلك علماء التاريخ على كتاب القالي وعلى ذيل كتاب القالي. هناك ذيل لكتاب يخص الإيلاف، وبعد الإيلاف، اعتماداً على مفسّرين ولغوين وغيرهم من القرن الثاني للهجرة، عقداً بين قريش والقبائل التي يختارها التجار القرشيون. قد يوجد مثل هذه العقود،

لكن لا أرى أبداً أن مفهوم الإيلاف هو هذا. الإيلاف من جذر أَلْفَ، وهو موجود في اللغة العربية في زمن القرآن، ويعني التعود على شيء. والدليل على ذلك الآية المدنية "أَنَّ اللَّهَ أَلْفُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ وَصَرْتُمْ إِخْوَةً"، في ما يخص الانصار، أَلْفُ أَيْ وَحْدَةٍ بين قلوبكم، والإيلاف هو التعود التجاري. وما يريد القرآن قوله هنا هو أنَّ القرشيين في طريقهم يتربون بلدتهم من دون حماية، لأنَّه محميٌّ من الإله، من الكعبة. هم لا يعرفون بالضبط من هو إله الكعبة لأنَّه يرجع إلى زمنٍ قديم جدًا في الفترة السامية، حيث كان الحجر هو بيت الإله حتى عند العربين، و"بيت إيل" عند العربين القدامى، ومرت إلى اليونانيين الذين سمووا كلَّ هذه الأَحْجَار "بيت إيل". وهي مأخوذة عن العبرية القديمة. ونحن نعرف أنَّ يعقوب أو إسحاق نام مرة على حجرة فكلَّمه الإله عن طريق هذه الحجرة. فالحجر مقدس عند العرب، وعند العربين القدامى، وعند غيرهم في هذا المجال السامي. إنَّما في القرآن، ربُّ هذا البيت هو الذي يحميهم وليس ما يظلونه من أنَّ الكعبة ليس لها إِلَهٌ مَعْرُوفٌ، وأنَّ إِلَهٌ هُوَ الَّذِي سِيَكْشِفُهُ الْقُرْآنُ فِي السُّورَةِ رَقْمُ ١٥، وهو الله.

بين قوسين، اهتممت في أثربولوجيا الجزء الثاني بالحج الأكبر أيضًا. وهو حج العرب؛ العرب الرحل على أطراف نجد، في ما بين نجد والحجاز، وهو نوع من الحج إلى الشمس، مرتبط بالشمس. وهذا قررته بصفة دقيقة ومرتبط أيضًا بطلب الماء في الخريف. وهو حج يقوم به الرحل، من أصحاب الأئمَّة والرعاة وليس تابعًا لقرיש. التابع لقرش هو حج البيت فقط. أمَّا حج عرفة والمزدلفة وأخيرًا مني حيث تقع الأضحية ورمي الجamar، فهي من الأمور التي تخصن العرب. والقبائل التي تُعطي رخصة الإفاضة في عرفة ورخصة الوفادة في مني، هي قبائل من هذه الجهة يذكرها الطبرى وغيره، وليس قبيلة قريش. هذا واضح.

واهتممت بكثير من الأمور، والذي تبيَّن لي هو أنَّ قريشاً إذ تمثل قبيلة، والقبيلة في كلَّ الحضارات القديمة جدًا هي كيان سياسي يحمي الناس ويعلن الحرب وينهيها وغير ذلك. والعشيرة التي يسميتها الأوروبيون Le clan هي التي تقوم بالوتر وبالثار وحماية الشخص. وهذا موجود حتى في أستراليا، وفي غيرها. درسه دور كهفهم وماكس فيبر وغيرهما. وأخيرًا، يوجد ما يمكن أن يسمى بالسلالة ويسمى الأثربولوجيون Lignage وهو القرابة الاقتصادية والجنسية، أي الأب والأم والعم والأخ الذين ينتسبون فعلاً إلى حِدٍ واحد غير بعيد، والذين تتطبق عليهم علاقات المحارم. ومسألة المحارم هذه مهمة جدًا ودرستها عن كثب، بحيث وقع تغيير للمحارم القديمة التي كانت قوية في قريش من طرف القرآن الذي دقَّ المحارم بصفة مضبوطة. ثم درست الدعوة. ورأيت أنَّ الدعوة التي تسمى سرية لا يمكن أن تكون ثلاث سنوات في هذا البلد الصغير، وأنَّ المهم هو حين باح الرسول أمام الملأ، أو ما يسمى الدعوة العمومية أمام الملأ، برسالته الجديدة، ومحفوظي هذه الرسالة. من الممكن أن تكون سورة النجم هي أول اجتماع مع الملأ. وهذا الملأ هو وحدة يمكن أن تقول حكومية لكنَّها ليست بدولة حقيقة، تجمع بين رؤساء العشائر، وكلَّ رئيس عشيرة مستقل، وهو الذي يسير عشيرته ولا يتدخل غيره في هذا الأمر. وهذا ما يفترض أنَّ ما سُميَ فيما بعد بـ"الفتنة" وتعذيب بعض المسلمين كبلال وغيره، لا يمكن أن يكون تعذيب أي مسلم، بل لا بد أن يكون شخصًا من موالي أبناء عشيرة معينة، ورئيس العشيرة هو الذي ينفذ العقاب في هذا الشخص. ولا يتدخل رئيس عشيرة ما في أمور عشيرة أخرى. والدعوة المحمدية يجعلها دعوة عمومية، أي إلى أشراف القبائل والعشائر، أرادت أن تقنع أشراف العشائر. وهذا أمر مهم جدًا؛ لأنَّه لو اقتنع أشراف العشائر ورؤساؤها - وهي عشر عشائر، منها أربع عشرات مهمة في التجارة ولها مجدٌ قديم بما فيها عشيرته هو التي هي عشيرة عبد مناف وليست عشيرةبني هاشم هي التي تقوم بالوتر، وإنما بنو هاشم لهم السلالة Lignage فقط بالنسبة إلى الرسول، وهناك قبائل مخزوم وقبائل أخرى مهمة أثرت التجارة وصارت تقوم بدور مهم - لدخل في الدين الجديد كلَّ الناس، لأنَّ أبناء العشائر يتبعون رئيسهم دومًا بكلِّ اضطراب. ومسألة عدم نجاح الإسلام في مكة متعلقة برؤساء العشائر؛ فرؤساء العشائر لم يدخلوا في الدين الجديد، وهو أمر مستحيل بالنسبة إليهم لو أردنا أن نرى الأمور بصفة موضوعية، لأنَّ كلَّ حضارتهم ونسقهم سيندثران بذلك، ولا يعرفون عن المستقبل شيئاً. عليه، لم يدخل القرشيون في هذا الدين إلا قلة قليلة هم 100 أو 120 شخصاً، وهم معروفون، 83 هاجروا إلى الحبشة ويدركهم ابن إسحاق، في ما يخص القوائم ومن اتبعه في الهجرة فيما بعد حوالى

120 شخصاً بما في ذلك النساء والأولاد لا أكثر، والبقية بقيت تابعة للأستقراطية القرشية. والدليل على ذلك أنّ الرسول لم تغلب على مكة من دون حرب لكن بقوة عسكرية، دخل أبو سفيان وهو رئيس كلّ عشيرة بنى عبد مناف، ومعه رؤساء عشائر مكة الآخرون في هذا الدين، ودخلت معهم كلّ مكة.

في الجزء الثاني، اهتممت بصفةٍ خاصةً بقصة الغرانيق. وهي قصة معروفة، من الآيات الشيطانية. حذفها ابن هشام. وهو حذفٌ واضح. في حين أنّ الطبرى الذى يروى أيضًا عن ابن إسحاق، يذكر قصة الغرانيق. وتأوليه قصة الغرانيق هو كما يلى: هناك قسم من رؤساء العشائر المكّيين القرشيين، لنُقل القسم المعتمد، أراد أن يقترب من محمد، وتأثروا حتى في اعتقاداتهم بالدعوة النبوية، فعدوا مثلاً آلتهم بناة الله، أو أنّهم ملائكة، وأنّهم يشفعون لهم لدى الله، وهذا موجود في القرآن. فهناك حزب، نجده عند ابن إسحاق، يرى التقارب مع الرسول، وليس الرسول الذي أراد التقارب من قومه قريش، كما يقال. لا، بل العكس هو الصحيح في اعتقادى. لكن من جهة أخرى، كان هناك قسم آخر لم ير ضرورة لهذا التقارب. بل رأى أنّه لا بد من الحفاظ على الدين القديم، وإذا لزم الأمر معاداة هذا الرسول. وهم الناس الذين ذكرهم عروة دون أن يسمّيهم.

ولقد اعتمدت على رسالة عروة إلى عبد الملك، لأنّ عروة بن الزبير هو رجل قديم توفي سنة 94هـ، وعاش كثيراً، ولد قبل واقعة "الجمل" حيث مات أبوه في الجمل سنة 35هـ. مات عروة كبيراً وكان فقيهاً كما يقول ابن سعد في ترجمته. عندما استقرت الأمور خلال الشهرين، أراد عبد الملك أن يفهم ماذا صار، ففي عهد عبد الملك بعد الفتنة الثانية، وقع استقرارٌ في هذه الإمبراطورية، وهو الذي عَرَّب الدواوين، وبنى قبة الصخرة وغير ذلك من الأمور. وقع استقرار في عهده إلى حين وفاة هشام سنة 125هـ؛ أي مدة أربعين سنة من استقرار الدولة الإسلامية في كنف دولة بنى أمية. أراد عبد الملك إذن أن يفهم ما وقع من الأمور. ورسالة عروة موجودة في الطبرى، وهي تبدو لي صحيحة؛ فعروة يخفي الأمور، ولا يتكلم عن الأشخاص، من دون شك لأنّ هناك أشخاصاً، بنو أمية، قاماً بالمراءة. ما يفهمه منه، أنّ أثرياء قريش من الجيل القديم لهم أملاك في الطائف، وفيهم أشخاص من الجيل الجديد، رجعوا بسرعة إلى مكة وأوقفوا كلّ محاولة للتتفاهم مع الرسول أو أمور من هذا القبيل من جانب الأطراف المعتدلة، وأوقفوا ذلك، وزادهم حدة هؤلاء الأثرياء الذين أنواع من الطائف، وكانت الطائف تابعة لمكة، وكان لأثرياء مكة ورؤساء العشائر الكبار أملاكاً في الطائف، ويقول عروة إنّهم رجعوا بسرعة وأوقفوا كلّ شيء وقاموا بالفتنة، أقلّ فتنة وقعت، خصوصاً وأنّ ثمة آية في سورة النجم، الآية رقم 23 على ما أعتقد، يقول القرآن بما معناه إنّ هذه الآلة غير موجودة، إن هي إلا أسماء سميت بها أنتم وأباوكم وما أنزل الله بها من سلطان، فينكر وجود الآلة تماماً، وهو ظنُّ ووهم. وهنا حصلت القطيعة بين أهل مكة وعلى رأسهم ما سمّيـه الحزب المتشدد، والقصة التي تقول إنّ الرسولقرأ سورة النجم كلـها ولكن دون وجود الآية 23 التي زيدت فيما بعد من دون شك في فترة قريبة، حيث اتضح مبدأ الوحدانية الإلهية ونفي وجود الآلة، قرأ عليهم كما يقولون والشيطان أدخل على لسانهم "تلك الغرانيق العلي وإن شفاعتـهن لترتجـى"، وأنّ "قريش" سجدـت ورأـت أنّ هناك تقارـباً وقع، وأنّ الله هو خالق كلـ شيء، لكن يقولـون نحن نشكـرك على جعلـك حـظاً لـآلهـتنا ولـعادـاتـنا. هذا ما تذـكرـه السـيرةـ. وهو غير مـمـكـنـ، لأنـسبـاً متـعـدـدةـ شـرـحتـهاـ فيـ عـشـرـينـ صـفـحةـ تـقـرـيـباًـ، وـوقـعـ رـجـوعـ الـمـسـلـمـينـ الـذـيـنـ هـاجـرـواـ إـلـىـ الـحـبـشـةـ، لـآهـمـ ظـلـواـ أـنـ قـرـيشـاًـ أـسـلـمـتـ.ـ لـكـنـ هـذـاـ وـهـمـ وـخـيـالـ.

إن الآية التي يذكرها ابن إسحاق ليست من أسلوب القرآن تماماً، في سورة من أجمل سور القرآن. وسورة النجم مركبة من فترات متعددة حلّتها، ليست سورة مكتملة تُقرأ على قريش. ورجوع المسلمين من الحبشة لا معنى له، إذ لم تقع فتنة ولم تكن هناك أي ضرورة لكي يذهب بعض المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، ثم عندما وصلوا، تبيّن لهم أنّ "قريش" لم تُسلم، فرجعوا مرة ثانية. وهذا لا معنى له. إنما وقعت فعلاً هجرة إلى الحبشة، بعد أن حصلت القطيعة. عندئذ كان لهذه الهجرة معنى، فخلال هذه الفترة وجدت فتنة، ويقصد

بها إجبار رؤساء القبائل موالיהם وبعض أبناء عشيرتهم على النكوس عن الإسلام، وفتنهم يعني جذبهم إليهم وجعلوهم يتزاولون عن الإسلام. كما قام بعض سفهائهم بالاستهزاء بالرسول وبعنف كبير grande agressivité. وقد ابتدأت مشاعر العداوة مع هذه الفتنة الأولى؛ إذ وقعت فتنة ثانية في مكة. وعندئذ يكون من المعقول أن يرسل الرسول عدداً كبيراً من المؤمنين الذين بقوا على دينهم إلى الحبشة، ليس خوفاً من الفتنة، ولكن خوفاً عليهم من أذى قريش ومن أن يتلاؤوا، ولم يبق معه إلا ثلة قليلة من أصحابه، وبقي وحده. وعندئذ وقعت القطيعة مع قريش. لا يمكننا أن نؤرخ هذا بالضبط، كما قام بذلك شخص مثل ابن سعد الذي يؤرخ أنّ هذا وقع في السنة الخامسة بعد الهجرة أو في السنة السادسة بعد الهجرة، أو غير ذلك. نحن لا نعتمد إلا على تقسيم القرآن الملكي إلى ثلاثة أجزاء؛ القسم الأول انتهى بسورة النجم، وتلتها بسرعة سورة الإخلاص وبالتالي تأكيد الموقف التوحيدى "قل هو الله أحد" إلى آخره..، وسورة الكافرون أيضاً وردت بسرعة بعد سورة النجم، وبعد هذه القطيعة تبلور الدين التوحيدى في تلك الفترة، أي في آخر الفترة الأولى. وال فترة الثانية من التنزيل هي من نوع آخر، ثم أتت بعد ذلك فترة ثالثة حيث تغير الأسلوب والمعجم القرآني. وكلّ ما يمكن أن نقوله إنّ القطيعة تمت في آخر الفترة الأولى. ولا نقول بعد هذه السنة من المبعث أو تلك؛ فهذا غير ممكن.

قمت في الجزء الثاني بدراسة ما تقوله السير، سواء ابن سعد أو البلاذري أو ابن إسحاق أو الطبرى. وعدتها نوعاً من "الأناجيل الإسلامية"؛ لأنّها تقصّ علينا حياة الرسول، وتأنّى بعض الآيات، وابن إسحاق بصفة خاصة بعد كلّ حدث يأتي بالآية التي تبرهن عليه. لكنّه يخطئ كثيراً في استشهاداته القرآنية، كما بيّنت ذلك.

والآن نأتي إلى المدينة، سألّحص هذا بسرعة. لماذا أسلم قسمٌ كبير من المدينيين من أهل يثرب ودخلوا في الإسلام؟ أريد تحليل ذلك اعتماداً على ماضي المدينة الذي كان ماضي حروب بين الأوس والخزرج، وهما قبيلتان من المدينة. حروب مستديمة وقديمة. وأخرها معركة "بعث" قبل سنتين من الهجرة تقريباً، والتي غلب فيها الخزرج على أيدي الأوس ومعهم اليهود، قبيلتان كبريتان هما بنو النضير وبنو قريطة. وكان الجُوّ في المدينة مسموماً جداً؛ إذ تقول المصادر مثلًا إنه حينما جاء الرسول لم يكن ممكناً أن يأتي معه أحد مسلمي المدينة إلى مساكن الأوس، لأنّه يخشى على نفسه من القتل، فكانت كلّ عشيرة مستقرة في مكانها والجوّ مسموم لما حصل في "بعث". وكان المدينيون خلافاً للقرشيين متشبعين بالوتر، أي وتر من قُتل. وكان يسود جوّ حربى بين الأوس والخزرج، والأوس كانوا حلفاء مع اليهود. والذين أتوا بالرسول إلى المدينة هم عناصر من الخزرج، أرادوا أن يقيم هذا الإنسان الذي عدوه مثل الحكم، السلم. وشخصية أجنبية يمكن أن تقوم بالتحكيم بين طرفين المدينة وإحلال السلم. وهي ظاهرة موجودة في التاريخ. فعندما تتحدث عن المدن الإيطالية في القرون الوسطى، حينما يتتصارع طرقان أو حزبان في مدينة معينة، يدعون أجنبياً يسمونه (Podesta) أي صاحب الحكم، ولكن بشروط هي أن يحلّ السلم بين هذه العناصر، ولا يتزوج من أيٍ من الحزبين، وأن يكون موضوعياً، وذلك لعدة معينة. وعليه، فالرسول يقوم بدور هذا الشخص؛ فهو لم يتزوج بأيّ أنصارية، واستقر في وسط المدينة، وكان دوره هو إحلال السلم. وهذا ما جعله في السنة الأولى يقوم بتحرير الصحيفة المدنية بمعية عناصر من أهل المدينة. ويدرك فيها كيف يمكن تصفيية الحسابات. لهذه الصحيفة دور كبير. والمستشرقون مغمون بها ولا يزالون؛ لأنّهم ظنوا أنّ اليهود أعضاء في الأمة الإسلامية، ولم يفهم هؤلاء المستشرقون إلى اليوم النص، أو أسوأوا فهمه بطريقة فظيعة. ولعلّ ما غالطهم هو ما ذكره أساساً ابن هشام أنّ فوق هذه الصحيفة كمدخل، ما قاله ابن إسحاق من مصالحة بين المسلمين واليهود، ولكن في الحقيقة اليهود موجودون في الصحيفة لكن كامر ثانوي، والمصالحة الحقيقية هي لخلق أمر جديد هو خلق أمة المؤمنين، أي لم تكن المصالحة "لا على الدخول في هذا الدين الجديد الذي سيجعل الأعداء القدامى أمة واحدة وليس لأحد منهم الحق في الثأر أو شيء من هذا القبيل. بل أكثر من ذلك، إذا قام أحد أبناء إحدى العشيرتين بمخالفته، فعلى المسلمين من أبناء عشيرته أن يعاقبوه. ولا يحقّ لمؤمنٍ أن يشار لكافر ولو من عشيرته، ومن هنا، إقامة نظام سلمي محمدي قائماً على الدين.

إن مفهوم "الأمة" في القرآن قام دائمًا على الدين، خلافًا لمفاهيم أخرى موجودة مثل "الرهط" و"العشيرة"، ومثل "القرون" وهي الأجيال المتتالية من البشر. كل هذه المفاهيم قرآنية، والأمة هي مفهوم مرتبط دائمًا بالدين حتى في الفترة المكية. وهناك آية في القرآن تقول لو شاء الله لجعل من الناس أمة واحدة، نعم، أمة واحدة مقامة على الدين القويم الصحيح. فهو مفهوم ديني. وبناءً عليه، كتابة هذه الصحفية مهمة جدًا لأنّها هي التي أتت بالسلم بفضل الدين، وخلق هذا المفهوم الذي يوجد في القرآن المكي أي مفهوم الأمة الإسلامية ومفهوم المؤمنين برسالة محمد. وتعد هذه الصحيفة اليهود أيضًا أمة مع المؤمنين، أي أمة سبب دين خاص بهم، لكن أراد أن يجعلهم مصاحبين للمسلمين، لكن هم لهم أمة خاصة بهم، مشابهة للأمة الإسلامية. لكن كل المستشرقين القدامى والجدد، باستثناء كايتاني Leone Caetani ، ي يريدون أن يجعلوا اليهود أعضاء في الأمة الإسلامية. وهذا خطأ كبير واضح. يرفض كايتاني ذلك لأن الإسناد ضعيف. ويحييه Nöldeke بأن الإسناد لا قيمة له، وأنّه وقع إigham اليهود إلى اليوم. ودونر Fred Donner أيضًا يقول في كتابه الجديد *Muhammad and the Believers* إن اليهود أعضاء في الأمة. ولم يفهموا أيضًا تركيبة الصحيفة. فالصحيفة صحفتان، مُخاطبان إحداهما بالأخرى؛ قسم أول كُتب في السنة الأولى قبل "بدر" ، وهو القسم الذي يتكلم عن الأمة ولا يتكلم عن القبائل اليهودية، وهذا أمر واضح جدًا، ويقول الواقدي إنّ الرسول عَدَ اليهود مواليٍ وتباعًا للعرب، ومن هنا، هو لا يتكلم عن قبيلة معينة، لا قينقاع ولا قريطة ولا شيء من هذا القبيل. وإنما يقول يهودبني عوف وهم القينقاع، وبهود الأوس وهم النضير وقريطة. وعندما يتكلم عن اليهود يتكلّم بالتبع للعشائر العربية؛ فالرسول لا يعترف في القسم الأول الذي كُتب قبل "بدر" باليهود بوصفهم كيانًا سياسياً، بل يعترف فقط بأن لهم ديناً خاصًا بهم يكثرون به أمة. وهم تابعون سياسياً واجتماعياً للعرب. ولم يفهم المستشرقون لماذا لم يذكر اسمبني قريطة. ما جعل بعضهم يقول إن الصحيفة كُتبت بعد الصراع معبني قريطة في السنة الخامسة للهجرة. وهذا غلط. ثم هناك قسم ثانٍ كُتب بعد "بدر" وقبل "أحد". ولذا ذكرت فيه قريش ومداهمة المدينة، وضرورة أن يتسلح كل أهل المدينة بما في ذلك اليهود للدفاع عن المدينة إذا تمت مهاجمتهم. وكُتب هذا القسم الثاني في السنة الثالثة للهجرة، ترقّباً لمهاجمة قريش المدينة. ويطلب الرسول من العرب والمسلمين أن ينفقوا للدفاع عن المدينة. هذا الجزء الثاني من الصحيفة من العدد 37 إلى 47 كُتب إذن في السنة الثالثة. وأدّمّج الكل في صحيفٍ مكتملة. لكن هذه الصحيفة منقسمة زمنياً إلى قسمين.

من جهةٍ ثانية، أردت أن أقول إنّ الرسول في الخيال الجماعي هاجر إلى المدينة. لكنه في الحقيقة وفي القرآن أخرج من مكة "وأخرجوكم من دياركم.." ، إلى آخره. وتقول آية أخرى إنّ "قريش" أرادوا أن يقتلوه أو يخرجوه.. وأخيراً اختاروا الإخراج؛ فالهجرة لم تكن هجرة إرادية إنما إجبارية. أردت أيضًا في هذا الكتاب الثالث أنّ فهم القارئ أنّ مسار الرسول في المدينة لم يكن هيئاً؛ إذ تعرض لمقاومة كبيرة ليس فقط في حربه مع قريش وإنما في صراعه مع الداخل؛ فقد كان هناك اليهود الذين كانوا يعارضونه، وكان الرسول يعتقد أنّ اليهود سيدخلون بسرعة في هذا الدين الجديد الذي يعترف بدينه وتوراتهم. لكن هذا لم يحدث. والمقصود باليهود هم الربانيون والأحبار وقادة القبائل، وبالخصوص "بني النضير" التي كانت هي القائمة بالشؤون الدينية. وكانت هناك معارضة قوية. وكان الرسول يتخفّف على المؤمنين لأنّ ضربات اليهود كان من شأنها أن تخلخل عزيمة المؤمنين في المدينة. وهو وصل في آخر المطاف إلى نتيجة، وهي أن يحدث Homogénéité أي تجانس في مدينته التي استقر فيها. وهذا ما جعله يطرد اليهود، وفي النهاية يقتل زعماءبني قريطة لخيانتهم ومظاهرتهم أصحاب الخندق كما يقول القرآن. مسار النبي كان صعباً جدًا. كما كان هناك المنافقون. وقد حللت معنى المنافقين، وكيف يمكن أن نفهم هذا الوجود قضية ابن أبي بصرة خاصة، وغير ذلك. لم يخلص النبي من الصعوبات إلا في السنة الخامسة للهجرة، بعدما نجح الدفاع الذي أنشأه أي الخندق، ولم تستحب المدينة من جانب قريش والبدو الذين كانوا معها. عندئذ رأى الرسول أنه تخلّص من قريش ومن اليهود تماماً. ووقع انسجام في المدينة؛ لأنّ قسمًا كبيرًا من الأوس كان في البداية معارضًا للرسول لأنّهم كانوا الغالبين في حرب "بعث" ، وكان قسم كبير من الأوس أصدقاء لبني قريطة وبني النضير، وكانوا جيرانهم، ولم يسلمو إلا في

السنة الخامسة للهجرة. درست في آخر المطاف كيف جرى توحيد الحجاز بالأساس وليس كل الجزيرة العربية، وعلاقة الرسول بالقبائل. وطرح إشكاليات غير موجودة في كتب أخرى بخصوص هذا التوحيد، وبخصوص ما يسمونه بالردة. قمت بتحليلات خاصة لا يمكن أن أسترجمها الآن. لكن في آخر المطاف وعند موت الرسول، لم يقع توحيد كامل للجزيرة العربية. ولا أرى أيضاً أن الرسول هو الذي جاء بفكرة الفتوحات. وأرى أن حلفاء الرسول هم من أتى بفكرة الفتوحات لأنهم رأوا أن من مصلحة الإسلام أن يخرج العرب إلى الخارج، لأن الإسلام يجبر العرب على الأخوة وأمور متعددة، وكان صعباً على العرب أن يكونوا مسلمين جديرين في جو الجزيرة العربية ومناخها الصعب، لذا رأوا أن الإسلام لن ينجح إلا إذا كانت طاقة العرب موجهة إلى الخارج.

هذه في الجملة، سيداتي وسادتي، إطالة عامة على هذه الكتب الثلاثة، توخيت فيها نقد النصوص، ونقد ما لم أره صحيحاً من آراء المستشرقين، بتحليل دقيق للمصادر، وبصيغة تفهمية لهذه المغامرة الكبيرة التي كانت منعرجاً عظيمًا في تاريخ الإنسانية، تستحق أن يدرسها الإنسان، بالأخص المسلمين، دراسةً تاريخية معقّدة دقيقة وموضوعية، لكن تفهمية أيضاً. كما يجدر بالمؤرخ أن يكون متعاطفاً دائمًا مع موضوع بحثه.

كلمة الختام: الدكتور عزمي بشارة

أثيرت قضايا كثيرة في هذه الجلسة؛ منها قضايا فكرية مهمة، ومنها مسألة إسقاطات مفاهيم الماضي على الحاضر، إذ يرى كثيرون أن الصحيفة هي دستور المدينة. في حين أن كلمة "دستور" كلمة حديثة، وهذا إسقاط من الماضي كما في إسقاط الدلالات الحديثة المصطلحات مثل "دولة" و"أمة" من هذه الألفاظ في استخداماتها في الماضي، ويُسقط كثيرون مفهوم الأمة على أمم الماضي. وطبعاً، يختلف مفهوم الأمة الآن عن الماضي. ولا يمكننا أن نقبل بأن المدينة كانت أمة مواطنين كما قرأت عند بعضهم، وغير ذلك. وحتى مفهوم الطائفة يسقط الآن على الماضي، وهي لم تكن تعني ذلك في الماضي؛ إذ كانت تعني طائفة من الأشياء. ومفهوم الله أيضاً، وكل هذه المفاهيم، نأمل أن يساهم مشروعنا في معجم الدوحة التاريخي لللغة العربية مساهمة كبيرة في فهم النصوص في زمانها وسياقها التاريخي، بدلاً من فهم الألفاظ بدلائلها الحاضرة.

هناك مشكلة أرى أن الدكتور هشام وأخرين يعانونها؛ فمشكلة المثقف العربي العقلاني المتخصص الذي يستخدم معايير عقلانية في أبحاثه ومعايير أخلاقية في حياته، أنه يعني سلفيتين هذه الأيام؛ سلفية دينية، وسلفية علمانية، تحول العلمنانية التي اتفق معها إلى أيديولوجية. وأرى أن بعضنا يسقط ضحية السلفيتين، لا ضحية سلفية واحدة. وربما هذا ما يميز عصرنا من عصر طه حسين في تلك الفترة؛ فإذا كنت تعيش في بلدٍ مثل تونس قد تهاجمك سلفية دينية متشددة جداً وتهاجمك أيضاً سلفية لائقية متشددة جداً. وعلينا في هذه المرحلة أن نصمد كباحثين في وجه ضغوط سلفيات عديدة كما يبدو. وبهذا نختتم.

